ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة التواصلية
ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537
HTTPS://WWW.ASJP.CERIST.DZ/EN/PRESENTATIONREVUE/294
المجلد: 08 العدد: 03 (2022) ص 75 /92

تجليات التناص القرآني في شعر مفدي زكريا

The manifestations of Quranic intertextuality in the poetry of Mufdi Zakaria

إبراهيم كعبي نسب	قاسم عبيداوي	فاطمة صحرائي سرمزده	رسول بلاوي *
جامعة الشهيد بهشتى (إيران)	جامعة بيام نور (إيران)	جامعة فرهنكيان (إيران)	جامعة خليج فارس – بوشهر (إيران)
e.chabavy@gmail.com	Ghob86@yhoo.com	f.sahrayi@cfu.ac.ir	r.ballawy@pgu.ac.ir

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال: 2022/7/20 تاريخ القبول: 2022/08/30	
✓ القرآن الكريم ✓ التناص ✓ الشعر الجزائري ✓ مفدي زكريا	

الملخّص

القرآن الكريم هو المصدر الأساسي و المؤثّر في شعر مفدي زكريا خاصة ديوانه «اللهب المقدس» و تظهر لنا بجلاء أنّه كانت له علاقة مميزة و منفردة بالنسبة إلى هذا الكتاب الجليل. تناولنا في هذا المقال دراسة ظاهرة التناص مع القرآن الكريم في ديوانه اللهب المقدس معتمدين على المنهج الوصفي التحليلي فبيّنا مدى و كيفية استضاءة أشعار الشاعر بها و كيف تأثّر بالكتاب العظيم ليغترف منه ألفاظه التي يستخدمها في التعبير عن أفكاره و آرائه و عواطفه و أيضاً كيف استفاد الشاعر الجزائري من الصور التي وردت في سياق القصص القرآنية، فأشار إليها في شعره لتأدية المعاني التي كان يُريدها.

Article info	*Abstract:*
Received 2022/7/20 *Accepted* 2022/08/30	
Keywords: ✓ *Alquran Alkarim* ✓ *interstitial phenomenon* ✓ *poetry* ✓ *Algerian* ✓ *mufdi zakaria*	

The Quran is the main source in Mufdi Zakaria's poems especially in the Sacred Fire (Allahb almogaddas) . It shows the poets intrest in this valuable book. In this paper we relied on descriftive analytic method to investigate the intertextual phenomenon of the Quran in (Allahba lmogaddas). we mentioned how zakaria's poem are influenced by the Quran And how the poet used this effect in his words to express his thoughts and emotions. We also described how this Islamic poet uses images depicted in The Quranic stories and refers to the expressions of this meaning.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مقدمة

لقد كان القرآن الكريم وسيبقى الكتاب المحفوظ إلى يوم الدّين، مصداقاً لقوله تعالى: «إنّا نَحنُ نزّلنا الذّكرَ و إنّا لَهُ لحافظِون» (الحجر: 9) خلافاً لغيره من الكتُب السّماوية المنزّلة مِن قَبله.

القرآن مُعجزة الدّهر وكتابُ الزّمان ودستور الحياة، يستمدّ منه المسلمون قوّتهم ونشاطهم وعزّتهم وقد كانت عنايتهم به فائقة فتنافسوا في حفظه وفهمه والاقتباس منه، فبعد انتشار الإسلام في الجزائر، تسابق الجزائريّون للدّخول فيه وتنافسوا في حفظ القرآن وتعلّم اللّغة العربيّه، فلا نجد عالماً أو أديباً إلّا وقد حفظ القرآن قبل أن يتّجه إلى علمٍ من العلوم. إذاً فقد وجد شعراء الجزائر ميادين جديدة أمكنهم التّطرّق إليها وآفاقاً واسعة لم تُتح لهم في مصادر أخرى، فمضى كثيرٌ منهم يَنظمون أشعارهم مستضئيين إلى حدٍّ كبير بما جاء في القرآن.[1] مِن هؤلاء الشعراء، مفدي زكريا* الشاعر الجزائري المعاصر الملقّب بـ "الشاعر الثورة الجزائرية" وأيضاً لقبه الأدبي "ابن تومرت"، ما تطرّقنا إليه في بحثنا هذا ديوانه "اللهب المقدس" الذي نظمه أثناء فترة اعتقاله على يد السلطات الفرنسية الاستعمارية بسجن بربروس حيث يقول الشاعر نفسه عن هذا الديوان: «لم أعن في "اللهب المقدس" بالفنّ و الصّناعة عنايتي بالتعبئة الثورية وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطلولة، سيجد في شعري (الشعراء، الناس) صلة رحم وثيقة بعز أمجادهم و تجاوباً صادقاً مع مشاعر العروبة وعسى أن أكون بهذا قد رضيت ضميري وثورة بلادي وعروبتي وأهبت – لنجدة ثورة العرب في الجزائر – بكل من تيقظ فيه ضمير».[2]

لشاعرنا في هذا الديوان عدد كثير من أنواع التّناص القرآني أو الاقتباس والتضمين مع القرآن الكريم. اعتمدنا في هذه الدراسة علي المنهج الوصفي– التحليلي للديوان المذكور آنفا وراجعنا شرح «في ضلال القرآن للسيد قطب» كي نُبيّن كيفية تأثّر هذا الشاعر الثّوري بآي الذكر الحكيم واقتباسها في كثيرٍ من أشعاره وكيف تعامل مع الآيات وكيف أخذ الصّور والمعاني ليعبّر عن أفكاره وآرائه وعواطفه وأيضاً كيف حرّض أبناء بلده على القيام ضدّ الاستعمار، إضافةً إلى ذلك كيف تضامن مع الشّخصيات التراثية الوارد ذكرها في كتاب العزيز الحكيم كشخصيات الأنبياء. بعد بحثنا في المواقع الإكترونية والمكتبات وجدنا مقالتين كتبت حول شعر مفدي زكريا، الأولى مقالة فارسية عنوانها «مفدي زكريا وشعر مقامت الجزاير» لقادري التي شَرَحَت فيها أشعاره الثّورية وأشارت إلى أنّ شعره سجّل تاريخ الجزائر المعاصر وملحمته الثورية كما ذكرنا آنفا أنّه شاعر الثورة الجزائرية الذي لم يعن بشيء بقدر عنايته بالثورة الجزائرية، الثانية عربية عنوانها «صور من الأثر القرآني لدى مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية» أيضاً لقادري التي تطرقت إلى الأشعار المتناصة مع القرآن الكريم فكتبت أنّه رسخ القرآن في ذهن الشاعر واستمدّ من القرآن لنقل أفكاره، غير أنّه لم تستفد قادري من أي

[1] زكريا، مفدي، اللهب المقدس، الجزائر، عاصمة الثقافة العربية: موفم للنشر، 2006م، ص 7

[2] مشيش، حسين، رسالة دكتوراه بعنوان أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري، الجزائر:جامعة بانتة، 2008م، ص «ب»

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

شرح أو تفسير للقران الكريم. سعينا في هذا المقال أن نستفيد من تفسير سيد قطب لنشرح الآيات بوضوح للقارئ الكريم.

التناص

التناص هو تولد نص من نصوص متعددة التي تُمحى الحدود بينهما وأعيدت صياغتها بشكلٍ جديد. كلّ نص هو تناص والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات مختلفة وبأشكال ليست عصية على الفهم، فكل نص ليس إلّا نسيجاً جديداً من استشهادات سابقه.[1] إذن تداخل النصوص أو تعالقها، تكثيفها أو تحاورها في بناء عميق هو المقترب التناصي الذي بموجبه يفسّر النصوص بعضها بعضا.[2]

يجمعُ الدّارسون المعاصرون على «أنّ النّص الشعري يتشكل من مجموعة نصوص تتداخل وتتشابك بناها في تركيب فنّي معقّد»[3] وهذا ما صرّحت به "جوليا كريستيفا" وغيرها من الشّكليين من «أنَّ التناص هو أحد مميزات النّص الأساسية والّتي تحيل مجموعة نصوص أخرى صادقة لها أو معاصرة لها».[4] إذ إنّه في أبسط تعريفاته تداخل للنصوص، بمعنى أن يتضمّن نصٌ ما، نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة إليه أو ماشابه ذلك المقروء الثّقافي لدى الأديب، بحيث تندرج هذه النصوص مع النّص الأصلي ليتشكل نص جديد متكامل».[5] جوليا كريستيفا كانت أوّل من استخدم مصطلح "التناص". فهي اعتمدت على الناقد الروسي المعروف "ميخائيل باختين" واستبصاراته النّقدية، إذ يوكد أنَّ كلّ خطاب أدبي إنما يُكرّر خطاباً آخرَ وأنّ كلّ قراءة تشكّل بنفسها خطاباً والكتابة تعني ثلاثة عناصر هي: النص والكاتب والمتلقّي، بالإضافة إلى عنصر "التناص" الذي يناقش مع هذه العناصر الثلاثة.

من الملاحظ أنّ التناص انتقل إلى الأدب العربي في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، موجّهاً باهتمام كبير من جانب نقّاد العرب المعاصرين. فيرى "محمد مفتاح" التناص «نصوصاً جديدة تنفي مضامين النصوص السابقة وتؤسّس مضامين جديدة خاصة بها يستخلصها مؤول بقراءة إبداعية مستكشفة وغير قائمة على استقراء واستنباط».[6] ثمّ حاول في كتابه الآخر (تحليل الخطاب الشعري- استراتيجية التناص) دراسة العلاقات النصّية فيقول: «إنَّ الدارسين ماعدا بعض الاتجاهات المثالية، يتّفقون على أنّ التناص شيء لا مناص منه؛ لأنّه لا فكاك للإنسان من شروطه الزّمانية والمكانية

---

[1] البقاعي، محمد خير، دراسات في النص و التناصية، حلب: مركز الإنماء الحضاري، 1998م، ص 38

[2] السعدني، مصطفى، في التناص الشعري، الإسكندرية: منشأة المعارف المصرية، 1998م ، ص8

[3] الصمادي، امتنان عثمان، شعر سعدي يوسف (دراسة تحليلية)، عمان: مطبعة الجامعة الاردنية،2001، ص 235

[4] كريستيفا، جوليا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، المغرب: دار البيضاء،1991 م، ص 14

[5] الزعبي، احمد، التناص نظرياً و تطبيقياً، عمان: موسسة عمرية،1989م، ص 57

[6] مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، الطبعة الثانية، بيروت: {دون نا}1985م، ص 41

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

ومحتوياتهما ومن تاريخه الشّخصي أي من ذاكرته. فأساس إنتاج أي نص هو معرفة صاحبه للعالم وهذه المعرفة هي ركيزة تأويل النّص من قبل المتلقي أيضاً».[1]

وهناك الّذين حاولوا كثيراً في دراساتهم حول العلاقات النّصية تحليلاً ونقداً متأثّرين بالمدارس النقدية الغربية متعمدين على طروحات أعلام هذه المدارس غير أن أكثرهم راحوا يقتفون أثر التناص في الأدب العربي القديم وحاولوا أن يربطوا بين مصطلح التناص الحداثي وبين مصطلحات نقدية قديمة كالتضمين، التلميح، الاقتباس، السّرقة، المعارضة وغيرها، إضافةً إلى ذلك حاول بعضهم أن يربط التناص ببعض المفاهيم الموروثة ولا سيما نظريات عبدالقاهر الجرجاني في البلاغة النقدية «خاصة فيما يتعلّق بمفهوم الأخذ وشدة اقترابه من مفهوم التناص الحديث؛ إذ رفض الجرجاني استعمال السّرقة كما شاعت قبله وبعده».[2]

فهكذا حاول النّقاد المعاصرون أن يكشفوا السّتار عن التواصل الفكري بين القديم و الحديث وعن تقدم النّقاد العرب القُدامى في هذا المجال بالنسبة إلى النّقاد الغربيين، مقتصرين على عرض آراء القدماء حول فكرة التناص، مفصّلين جهودهم للكشف عن جماليات النّص فوجدوا أنّ التناص مصطلح جديد لظاهرة نقدية قديمة، إذ تشير الكتب النقدية العربية القديمة إلى وجود مبادئ لقضية التناص فيها. منها ما جاء في كتاب (العمدة) قول علي ابن أبي طالب عليه السلام: «لو لا الكلام يُعاد لنفذ».[3]

إنَّ فكرة انتقال اللفظ أو المعنى من نص إلى آخر قد تعنونت بعناوين مختلفه منها: الاقتباس والتضمين والتلميح وماشاكلها من المصطلحات الموازية لنظرية التناص في النقد المعاصر،كما يذكر "حسين جمعه" أنّ نظرية التناص تتّجه إلى النص وحده لتجعله فحوى الخطاب في بنائه الكلّي و الجزئي ومن ثمّ تنظر إليه باعتباره شبكة لامتناهية من الشفرات والتقاطعات الإشارية التي يدركها المتلقي فهو غير قابل للتحجيم، لأنّه يستجيب دائما للانتشار و إن كان مبنياً على الاقتباسات الكثيرة لنصوص سابقة وهذه مزية له.[4]

فلا بُدّ أن نقوم بتعريف هذه المصطلحات البلاغية التراثية (الاقتباس، التضمين، التلميح).

(1) الاقتباس: «هو أن يضّمن الكلام نظماً كان أو نثراً شئيا من القرآن أو الحديث، لا على ذلك الشيء من القرآن أو الحديث، يعنى على وجه لا يكون فيه إشعار بأنّه منه كما يقال في أثناء الكلام قال الله تعالى كذا وقال النبى صلى الله عليه وسلم كذا ونحو ذلك. الاقتباس ضربان: أحدهما ما لم ينقل فيه المقتبَس عن معناه الأصلي والثاني خلافه أي ما نقل فيه المقتبَس عن معناه الأصلي.

---

[1] السابق: ص 121

[2] الغذامي، عبدالله، الخطيئة و التفكير، من البنيوية الى التشريحية قراءة نقدية لنموذج معاصر، القاهرة: الهئية المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص 321

[3] القيرواني، أبو علي الحسن ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر و آدابه، دار المعرفة، 1998م، ص57

[4] المسبار في النقد الأدبي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2003م، ص 141

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

(2) التضمين: أصل التضمين هو أن يضمَّن الشعر شيئاً من شعر الآخرين بيتاً كان أو ما فوقه أو مصراعا أو ما دونه مع التنبيه عليه أي على أنّه من شعر الآخرين إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء وبهذا يتميّز عن الأخذ والسرقة. يُعرف الاقتباس والتضمين في النقد الأدبى المعاصر بـ "التناص الاقتباسي أو الاستشهادي "إذا لم يتغيّر معنى اللفظ المقتبس ويعرفان بـ "التناص التحويلي" إذا تحوَّل معنى النص القديم إلى ما يقتضيه النصّ الجديد.

(3) التلميح: كثيرا ما نسمع أن يُقال لمح فلان هذا البيت فقال كذا وفي هذا البيت تلميح إلى قول فلان وهو أن يُشار في فحوى الكلام إلى قصةٍ أو شعرٍ و مَثَلٍ سائر من غير ذكره إلى كل واحد من القصة أو الشعر كذا المثل.[1] أمّا التلميح فقد سَّماهُ أصحاب النقد المعاصر "التناص الإيحائي" لأنَّهُ يوحي بفحوى النصّ المأخوذ منه.

التناص القرآني

تعدّدت آلياتُ التناص مع النصوص الدينيّة، إذ تمثّل الثقافة الدينية جزءاً لايتجزأ من المخزون الثقافي للكثيرين خاصّةً الشعراء، "فالدّين يمثّل قيماً أخلاقية وروحية تتأصّلُ في الذّات الإنسانية وتظهر تجلياتها بشكل واضح في سلوكيات الأفراد وأنماط تفكيرهم. من هنا تبرز الأبعاد الدينيّة من موجهات الفكر الإنساني مع الأخذ بعين الاعتبار نسبة تأثيرها من شخص لآخر تبعاً لظروف تمليها طبيعة التجربة الفرديّة. ثمّة نقطة جديرة بالإشارة إليها وهي أنَّ القداسة تتجسّد في المصادر الدينيّة وبالتالي يغدو توظيف ما تحويه تلك المصادر سبباً في إضفاء القدسيّة على القضيّة وخصوصاً إذا كانت القضيّة ذات علاقة مباشرة بالواقع اليومي المعيش".[2] من هنا، تبرز ضرورة أخذ عنصر الزّمن بعين الاعتبار عند تناول قضيّة ما، لأنّها قد تعتبر من الماضي إذا اقتصرنا على تناولها بمعزل عن زمن القصيدة و الغاية من هذا الشأن هو التّنويه إلى أهمّية وجود توافق بين النّص من جهة ومضمون النّص من حيث الحدث، من جهة أخرى.

يُشكّل التّواصل بالنّصوص القرآنية ركناً رئيساً من أركان التواصل بالموروث الديني الذي يمنح النصّ الشعري ثراء وغنى ويفتح أمامه مجالات واسعة من التحليل والتأويل.

من الملاحظ أنّ التعامل المقبول مع النصوص القرآنية يرقي بالشعر إلى أرفع المراتب ويحلق به من السّطحية إلى آفاق أعمق من التأويل والتفسير، كما أنّ التعامل المرفوض مع هذه النصوص، يحطّ من رتبة الشعر وينقص من قيمته، فكثيراً ما يوظّف الشعراء النّصوص القرآنية توظيفاً جميلاً ليمنحوا قصائدهم مذاقاً مُعجِباً وكثيراً ما يوظّفون هذه النصوص المقدّسة توظيفاً في غير محلّه. إنّ توظيف النصوص القرآنية في الأدب بشكلٍ فنّي يزيدُ من إيحاءات النّص الشعري وثرائه ويفتح له آفاقاً رحبةً من التدبّر والتأويل، لكنّه في الوقت نفسه يستطيع أن يكون عنصراً من عناصر إحباط عملية الإبداع، إذ

[1] تفتازاني، سعدالدّين (لاتا) شرح المختصر، قم: انتشارات مصطفوى، صص221،223

[2] الخضور، صادق عيسى، التواصل بالتراث في شعر عزالدين مناصرة، الطبعة الاولى، عمان_اردن: دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، 2007م، ص54

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

يندمج الشاعر في القرآن اندماجاً مطلقاً فلا يكون في شعره أيّ إبداع، لأنّ توظيف القرآن بهذا الشكل يؤدّي في الغالب إلى خلل في العملية الإبداعية.

فالتواصل مع النّص القرآني، كان حيثما أحسّ الشاعر بضرورة تدعيم موقف معيّن أو خلع القداسة عليه. نقوم بالبحث عن الأبيات المتناصة مع القرآن الكريم في شعر مفدى زكريا.

التناص مع قصة فرعون و السُّحرة

ممّا لا ريب فيه أنَّ مفدى زكريا نشأ نشأةً دينية، مخلصاً لله و للإسلام، متشبّثاً بالقرآن الكريم، كما يتّضح لنا هذا في أشعاره خاصةً في ديوانه "اللهب المقدس"، كما اخترناه في هذا المقال لِنُبيّن مدى تأثّره بكلام الله المجيد، قوله:

واقض ياموت في ما أنت قاض أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا

نظم الشاعر هذه القصيدة بعنوان "الذبيح الصاعد" في أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد دشن المقصلة المرحوم أحمد زبانا وذلك ليلة 18 جوان عام 1956.

فيتناص المصراع الأول من البيت مع آية 72 سورة طه «...فَأقضِ مآ أنتَ قاضٍ إنّما تقضى هذِهِ الحَيوةَ الدّنيا» يومض الشاعر إلى قصة فرعون مع السّحرة ومع القلوب التي مسّها الإيمان، تلك القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتَعُدُّ القربى مِنهُ مغنماً يتسابق إليه المتسابقون فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة وترفض ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه. قالوا: لن نؤثرك على ماجاءنا من البيّنات والذي فطرنا فهي علينا أعزّ وأغلى وهو جلّ شأنه أكبر وأعلى.[1] فأخذ الشهيد الجرأة والشجاعة والمروءة من تلك الفتية واقتفي أثرهم ولم يُعنى بالحياة الدنيا من أجل سعادة شعبه وأبناء بلده.

وغيرُ ذلك من أشكال التناص في قصيدة "قال الله" التي نَظمها الشاعر بسجن البرواقية مُخلّداً الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية وألقيت بالنيابة في مهرجان الذكرى الذي أُقيم بتونس نوفمبر (تشرين الثانى) لعام 1957.

التناص مع سورة القدر

كما أنَّ هذه الثورة قد حدثت اول ليلة من شهر نوفمبر وهي الثورة الجزائرية المسلّحة، فتحّدث الشاعر عن قدسيتها واستجابة الدعاء بها كما يستجاب الدعاء في ليلة القدر حيث يقول:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا (نفمبر!) هل وفيت لنا النصابا؟

وهل سمع المجيب نداء شعب فكـــانت ليلة القدر الجوابا؟

زكـــت وثباتـــه عن ألف شهر قضاها الشعب، يلتحق السرابا

تنزل روحها من كل امرٍ بأحرار، قد أهابا[2]

[1] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق،1412ق، ص 2722

[2] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، الجزائر، عاصمة الثقافة العربية: موفم للنشر،2006م، صص 33،34

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الحديث عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التي سجّلها الوجود كلّه في فرح وغبطة وابتهال. ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى، ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة ذلك الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته وفي دلالته وفي آثاره في حياة البشرية جميعاً. العظمة التي لا يحيط بها الإدراك البشرى: «إنّا انزلناهُ في لَيلَةِ القَدرِ وَما أدراك ما لَيلةُ القدر، ليلةُ القدرِ خيرٌ مِن ألفِ شهر، تَنَزّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ رَبِّهِم مِن كلّ أمر» (القدر: 1،2،3،4) نور الفجر الذي تعرضه النصوص متناسقاً مع نور الوحى ونور الملائكة وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية في هذا الوجود: «سَلامٌ هيَ حتّى مَطلَعِ الفَجر» (القدر : 5).[1]

التناص مع الأية المشيرة إلى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم

التأثّر من القرآن الكريم، تاريخ الإسلام والشعر العربى القديم من خصائص البارزة لشعر مفدي زكريا، حيث نستطيع أن نشاهد تأثره مع وضوح في جلّ أشعاره بالصور والمعاني والألفاظ القرآنية. في فيفرى (شباط 1957) بمناسبة خذلان المنظمة الدولية لقضية الجزائر في دورتها الثالثة عشرة نظم قصيدة بعنوان "وتعطلت لغة الكلام" إذ يقول:

والزرع أخرج في الجزائر شطأه

فمضى، و هبّ إلى الحصاد كرام

يشير هنا الشاعر الى آية «كزَرعٍ أخرجَ شَطأهُ فآزَرَهُ فاستوى على سوقهِ يُعجِبَ الزُّرّاعَ» (فتح/29) فسّوى بين صفة أبناء الجزائر وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أنّهم (كزرعٍ أخرج شطأه)...(فهو زرع نامٍ قوى، يخرج فرخه من قوته وخصوبته ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده (فآزره) أو أن العود آزر فرخه فشده (فاستغلظ) الزّرع وضخمت ساقه وامتلأت). فاستوى على سوقه لا معوجاً ومنحنياً ولكن مستقيماً قوياً سوياً. هذه صورته في ذاته فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع، العارفين بالناس منه والذابل المثمر منه والبائر فهو وقع البهجة والإعجاب (يعجب الزارع).[2]

التناص مع أسلوب الأمر في القرآن

يطالعنا أسلوب الأمر في شعر مفدي زكريا خصوصاً إذا كان الشاعر في معرض النّصح والتحذير. أنشد الشاعر قصيدة عنوانها "إقرأ كتابك" بقصر زنزانة رقم 375 بسجن (البرواقية) بمناسبة الذكرى الرابعة للثورة الجزائرية يوم فاتح نفمبر (تشرين الثانى) 1958 وألقيت في (صوت العرب) بالقاهرة فيقول:

هذا (نفمبر)، قم ! وحي المدفعا واذكر جهادك والسنين الأربعا[3]

[1] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 4625

[2] السابق: ص 3887

[3] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 5

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

إذن هنا يومض زكريا بشكلٍ خفيٍ إلى آي سورة المدثر: «يا ايّها المدّثر قُم فأنذر».(المدّثر: 1،2) عندما ينادى جلَّ وعلا النداءَ العلوي الجليل، الأمر العظيم الثقيل، نذارةَ هذه البشرية وايقاظَها وتخليصها من الشّرّ في الدنيا ومن النار في الأخرة وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان وهو واجب ثقيل شاق، حين يناط بفرد من البشر – مهما يكن نبياً رسولاً – فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتغصّي من هذا الأمر، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود![1]

فالشاعر أيضاً يُنبّه ويُحرّض ويوقظ أبناء شعبه وإخوانه من الغفلة و المعاناة والسكوت تحت ظلم الاستعمار والاستبداد ويشجّعهم للوصول إلى الآمال قبل فوات الأوان ثم يقولُ آمراً:

واقرأ كتابك، للأنام مفصلا تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا

يظهر لنا بجلاء في هذا البيت أنّ الشاعر يتناص المصرع الأول من البيت على طريقة القرآن في تجسيم المعانى وإبرازها في صورة حسية «وَكلَّ اِنسانٍ الزَمناهُ طآئِرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ القِيمةِ كتاباً يلقئهُ مَنشوُراً، اِقرَأ كتابَكَ كفي بنَفسِكَ اليَومَ عَلَيكَ حَسيباً». (الاسراء:13،14) فكما أنَّ البارئ سبحانه وتعالى يُجسِّم عملَ الإنسان له وهو (الإنسان) لا يتخلف عنه ولا يملك التملّص منه وأيضاً التعبير بإخراج كتابه منشوراً يوم القيامة وتصوير عمله مكشوفاً، لا يملك إخفاؤه، أو تجاهله أو المغالطة فيه، تجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشُور مع أنّه أعمق أثراً في النفس وأشد تأثيراً في الحس؛ إذ الخيال البشرى يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا في فزع الطائر من اليوم العصيب، الذي تنكشف فيه الخبايا والأسرار و لا يحتاج إلى شاهد أو حسيب: «اِقرأ كتابَكَ كفي بنَفسِكَ اَليومَ عَلَيكَ حَسيباً».[2] أيضاً الشاعر يُخاطب أبناء الشعب قائلاً إقرأ للناس والخَلق ما حدث ووَقَع لكَ وما حدثت لك من مصائب ورزايا واكشِف عن ما حَقّقته من نصر وفوز كي تدهش الآخرين وتروعهم.

تناص حكم من يريد التفرق بأبناء الشعب مع حكم أبي لهب

نكاد لا نغلو إذ قلنا إنَّ شاعرنا لايزال يتعايش مع الآيات الكريمة ويتقاطع معها ليأخذ معانياً ودلالات مختلفه لِما يناسب حالته الشعرية، فإذا أمعنّا النظر في أشعاره، نرى أنَّ الاستعانة بالقرآن الكريم والاستضاءة بايآته الشريفه بارزةٌ في كلٍّ منهما لإفادة المعنى المقصود إذ نرى الشاعر في نشيد الانطلاقة الوطنية الأولى لحزب "نجمة افريقيا الشماليه" الذي نظمه سنة 1936 يقول:

رضينا بالإسلام تاجا كفي الجهال تدنيسا
فكل من يبغى اعوجاجا رجمناه كإبليسا!

[1] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص4394

[2] السابق: ص2577

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

خلقناكم بحكم الهوى إخوة فتبّت يدكل من فرقا![1]

ففي البيت الأخير حكم كلّ من يريد التفرق بأبناء الشعب حكماً قاسياً بأبى لهب الذي لم يدّخر وسعاً إلّا و بذله في الاحتيال بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وإثارة حرب شعواء عليه، فحكم الله تعالى عليه، بالصلي و الحرق و العذاب في نارٍ ذات لهب[2] متمسكاً بالآية الشريفة: « تبّت يدا أبى لَهَبٍ وَتَبَّ»(المسَد: 1)

القصيدة المنشودة يوم استقلال المغرب و تناصها مع آية فوز المؤمنين

وإذا انتقلنا إلى ما قاله الشاعر في القصيده التي أنشدها بين يدي الملك محمد الخامس، يوم إعلان استقلال المغرب وذلك بالقصر العامر يوم 17 نوفمبر (تشرين الثانى) 1955، باسم الجزائر الثائرة نُلاحظ أنّه ليس بعيداً عمّا كتب في التزيل العزيزِ حيث يقول:

ماذا أرى جنات عدن فُتحت أبوابها ؟ أم موطني و دياري[3]

كما يتّضح في الشطر الأول أنّه يتناص مع الآية الشريفة: «يَغفِرلكم ذنوبَكم ويُدخلكم جناتٍ تَجرِى مِنْ تَحتِها الأنهارُ ومساكن طيبةً في جناتِ عدنٍ ذلك أُلفوزُ العَظيم» (الصف : 12) حيث أنّ هذا الشطر يتقاطع مع كثيرٍ من آيات الذكر الحكيم ولا مجال لذكرها. عبّر هنا عن استقلال البلاد ورخاء الناس وتمتّعها بالحرية والطمأنينة بربح المؤمنين في تجارة هذة الحياة القصيرة . حتّى حين يفقدون هذه الحياة كلها . يعوّض الله تعالى عنها تلك الجنات وهذة المساكن في نعيم مقيم.. وحقاً..« ذلك الفوز العظيم... »[4]

تناص كفر الفرنسيين عندما اصطنعوا حدوداً وهمية بين الأقطار الثلاثة الشقيقة بالشمال الأفريقى مع آية كفر المسيحيين

ثمّ يردف قائلاً أنّ الفرنسيين كفروا عندما اصطنعوا حدوداً وهمية بين الأقطار الثلاثة الشقيقة بالشمال الأفريقي:

كفر الألى قالوا (الشمال ثلاثة) ودعوا الى إذلاله بالنار[5]

فجملة كفر الألى قالوا (الشمال ثلاثة) في الشطر ألأول يُلمح إلى الآية الشريفة على مستوى البنية اللفظيّة: «لَقَد كفَر الذين قالوُا إنَّ الله ثالِثُ ثَلاثة وما مِن الهٍ إلّا إلهٌ واحدٌ وإنْ لّم يَنتَهوا عما يَقُولونَ ليمسّنَّ الذين كفَروا مِنهُم عَذابٌ أليم». (المائدة: 73) فتغدوا بذلك رمزاً ليشير إلى قوله تعالى تجاه قول الكافرين: «إنَّ الله ثالِثُ ثلاثة» وتحذير المسيح

[1] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، صص89،90

[2] سيد قطب، ابراهيم، 4684 .

[3] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص99

[4] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 4157

[5] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 100

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

عليه السلام ورفضهم ووقوعهم بعد وفاته فيما حذّرهم مِنَ الوقوع فيه وما أنذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار.[1]

التناص مع سورة الفجر

سُنّةُ الكون هو التحويل والتبديل وحياة الدنيا كحُلمٍ لا يستغرق إلّا قليلا، فهى تمُرّ كلمح البصر، ما أجمل وأروع التعبير إذ رثا زكريا، "الملك محمد الخامس" وأرسلها من تونس للعائلة المالكة والشعب المغربى يوم وفاته :

(دنيا المطامع) خلها لذائبها واحتل في ملكوت ربك مأمنا !

واقرع فديتك . باب ربك ينفتح وادخل رضيا، مطمئنا، مؤمنا ![2]

تَمسّك بالآيات الشريفه: «يا أيّتُهَا النَفْسُ المطمئنّةُ، إرجعي إلى رَبّك راضيَةً مَرضِيَّةً، فَادخُلي في عِبادِى، وَادخُلي جَنَّتي » (الفجر: 27 ، 28 ، 29 ، 30)

فخاطبَ الملك كما تُخاطب وتُنادي النفس المطمئنة من الملأ الأعلى في وسط الهول المروّع، والعذاب والوثاق، الذي يتجاوز كل تصوّر. هكذا تُنادي في عطف وقرب: «يا أيتها » وفي روحانيه وتكريم:«يا أيتها النفس» وفي ثناء وتطمين «يا أيتها النفس المطمئنه» وفي وسط الشد والوثاق، الانطلاق والرخاء: «إرجعى إلى ربك» إرجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد. إرجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة «راضية مرضية» بهذه النداوة التي تفيض على الجوّ كلّه بالتعاطف والرضى«فادخلي في عبادي» المقرّبين المختارين لينالوا هذه القربى «وادخلي جنتي» في كنفي ورحمتي ..[3]

تناص حوادث بنزرت الدامية إثر العدوان الفرنسي مع قصة طوفان نوح والعاصفة التي جرت على قومه

الذي يقرأ شعر مفدى زكريا يستطيع أن يدرك أثر الكتاب المقدس بشكلٍ مُتميّز وجَليّ في الشكل والمضمون لا سيّما في ديوانه "اللهب المقدّس" الذي نَجِدُ تأثُّرهُ بالوحى المنزَل بارز لا يُخفي عن كل ذي صلةٍ بهذا الكتاب المقدس، فنجد شاعرنا في ذكر حوادث بنزرت الدامية إثر العدوان الفرنسي عليها يوم 19 يوليو(تموز) عام 1961، يقول:

يا أرض ميدي واصعقي ياسما يا نار زيدي وادفقي يا دما

يا بحـر أزبد و اصطبغ عندما يا أفق ارعد واصدع لأنجما[4]

[1] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 1121

[2] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، صص 177، 178

[3] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، صص 4580،4581

[4] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 211

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

لا شك أنَّ هذه الأبيات تأخذ بأذهاننا إلى ما قاله جلّ وعلا في شأن قصة طوفان نوح والعاصفة التي جرت على قومه: «وقيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سَماء اقلعِي وغيضَ الماء وقُضِي الأمر واستَوَت علَى الجُودِي وقيلَ بُعدا للقُومِ الظَّالمين» (هود: 44)

تناص حادثة زلزال بلدة (الأصنام) غربي الجزائر مع سورة الزلزلة التي تصور زلزلة القيامة ووقائعها

عندما نمعن النظر في جلّ قصائد الشاعر مفدي زكريا نُشاهد أنَّ أكثرها تختص بالحوادث التي طرأت على الأشخاص الثوروية كالملك محمد الخامس وغيره والبلاد مثل الجزائر، فنرى في القصيده التي سّماها "ألا إنَّ ربك أوحى لها" أنشدها بمناسبة زلزال بلدة (الأصنام) غربي الجزائر قُبيل اندلاع الثورة الجزائرية 4سبتمبر (تشرين الثانى) 1954 وقد نُشرت بجريدة البصائر في عددها 292 إذ يقول :

هو الإثم، زلزل زلزلاها فزلزلت الأرض، زلزالها
وحملها الناس أثقالهم فأخرجت الأرض، أثقالها
وقال ابن آدم في حمقه يسائلها ساخراً: مالها ؟؟
فلا تسألوا الأرض عن رجة تحاكي الجحيم، وأهوالها
ألا إن إبليس أوحى لكم ألاإن ربك، أوحى لها ![1]

وأيضاً توجد قصائد أخرى كثيرة كهذه، فاقتبس الشاعر هذه القصيدة من سورة الزلزلة التي تصور وقائع يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً وتزلزل زلزالا وتنفض ما في جوفها نفضاً وتخرج ما يُثقّلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً. كأنّها تتخفّف من هذه الأثقال التي حملتها طويلا وهو مشهد يهزّ تحت أقدام المستمعين لهذه السورة ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون والأرض من تحتهم تهتز وتمور! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبّث به من هذه الأرض وتحسبه ثابتاً باقياً وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصوّرها القرآن ويودّع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة! ويزيد هذا الأثر وضوحاً بتصوير"الإنسان"حيال المشهد المعروض ورسم انفعالاته وهو يشهده: «وقال الإنسان ما لها» هكذا يُعبّر بها الشاعر: وقال ابن آدم في حمقه يسائلها سافراً: ما لها ؟؟

وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء الذي يرى ما لهم يعهد ويواجه ما لا يدرك كما يشاهد الإنسان في يوم القيامة ما لا يراه من قبل. طبَّقَ هذا المشهد بيوم انفجار الثورة الجزائرية وما فيه من زلزال و تقلب في الأحوال وللمرة الأولى من أهوال وتحدثٍ من أخبار ويشهد الإنسان أمامه مالا يملك الصبر والسّكوت.[2]

[1] السابق: ص 233

[2] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، صص 4636، 4637

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

تناص ذكرى ملحمة يوم الجزائر مع سورة الانشراح

قد عبَّر الشاعر عن الأوجاع في ذكرى ملحمة يوم الجزائر لعام 1961 تعبيراً جميلاً قائلاً :

ويقرأ في التزيل، عند صلاته

بأنّك بعد العسر، تغمره يسرا[1]

من الملاحظ أنَّ الشاعر في هذا البيت يُردِّد كلام أبناء شعبه وشكواهم وتحسّرهم من الظروف السائدة المؤلمة التي تحيط بهم من كل جانب فيتقاطع الفاظه بشكل لطيف مع آية: «إنَّ مَعَ العُسر يُسرا» (الانشراح: 5) ليُعبِّر عن آلام الأمّة بلغة فيها سُمُوٌّ وروعةٌ على مستوى البنية اللفظية. يتّضح في هذه الآيه أنَّ العسر لا يخلو من يُسر يصاحبه ويلازمه.[2]

التناص مع القوافي القرآنية

في القصيدة التي جرت بشكل حوارٍ بين الشاعر وفلسطين والعرب بمناسبة الذكرى 13لتقسيم فلسطين، جاء الشاعر بكثير من القوافي التي نجدها كفواصل في القرآن الكريم حيث يقول:

أناديك، في الصرصر العاتيه وبين قواصفها الذارية

وأدعوك، بين أزير الوغى وبين جماجمها الجاثية

وأذكر جرحك، في حربنا وفي ثورة المغرب القانية

فلسطين ... يا مهبط الأنّبياء ويا قبلة العرب الثانية

ويا حجة الله في أرضه ويا هبة الأزل، السامية[3]

فنرى هذه القوافي كفواصل في سورٍ مثل "القارعة" و"الغاشية"، فالشاعر لم ينقل معنى السورة بل لجأ إلى الحذف والإشارة إلى تلك السّور وهذا هو ما يُسمّى بالتناص التحويلي، لأنَّ الشاعر يحوِّل النص المقتبس منه ويُغيّره، كما أسلفنا القول في هذا النوع من التناص في المقدمة، فهذه المقطوعة وغيرها من الأبيات تراكمت فيها الإضاءات القرآنيه التي هي نتيجة تواصل الشاعر مع كلام الله تعالى وتأثير البئية التي نشأ فيها.

التناص مع الآية الداعية إلى النصر

ونرى في نهاية هذه القصيدة يدعو مخاطبيه إلى النصر والنعماء:

فإن تنصروا الله ينصركم وينجز أمانيكم الغالية[4]

---

[1] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص256

[2] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص4608

[3] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 279

[4] السابق: ص 288

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

فاقتبس الآية الكريمة: «يا ايُّها الذين امنوآ إن تنصرُوا الله يَنصُرُكم و يُثبّت اقدامَكم» (محمد : 7)

فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان وبين الحق والباطل، فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة، للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر وفي عدم التراخي بعده والتهاون و كثير من النفوس تثبت على المحنة والبلاء لكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أُخرى وراء النصر ولعلّ هذا ما تُشير إليه عبارةُ القرآن و ربّما أراد شاعرنا هكذا والعلم لله.[1]

التناص مع الآية المشيرة إلى تحقق وعد الله سبحانه و إيتاء الساعة

ويُتابع كلامه بتحقق وعد الله الذي يوعده وايتاء الساعة التي لا شك ولا ريب فيها قائلاً:

ولن يُخلف اللهُ ميعاده ولا ريب ... ساعتنا آتية[2]

لقد تناص كلَّ البيت مع الآيتين الشريفتين «ويَستَعجلِونكَ بالعذابِ ولَن يخلفَ الله وعدَه» (الحج: 47) و«أنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها و أنَّ اللهَ يبعثُ من في القبور» (الحج:17)

يُخبرهم بأنَّ وعدالله آتٍ في الوقت الذي أراده وقدَّره فوق حكمته واستعجال النّاس به لا يُعجّله كي لا تبطل الحكمةَ المقصودة من تأجيله و تقدير الزمن في حساب الله غيره في حساب البشر.[3]

فأمّا الساعة فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل، الذي تتوجّه إليه النفوس فتحسب حسابه والله سبحانه يؤكد مجيئها: «أَنَ الساعة آتية» فنبّههم وعلّمهم سبحانه، لأنَّ أمرَها عند الناس مجهول ومعرفتهم بها قليله، أيضاً حذَّر الناس الشاعرُ وأيقظهم خوفاً لوقف نشاطهم وسنة حياتهم ولكى يحذرون ويأملون و يجربون ويتعلمون ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم و يرون آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق ويبدعون في الأرض بما شاء لهم أن يبدعوا وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعودة، يحفظهم من الشرور، فهُم لا يدرون متى تأتى الساعة، فهم من موعدها على حذر وعلى استعداد دائم، ذلك لِمن صحت فطرته و استقام. فأمّا من فسدت فطرته واتّبعَ هواه فيغفل و يجهل فيسقط ومصيره إلى الردى.[4]

التناص مع القصص القرآنية في شعر مفدي زكريا

إنّ الالتزام بأمر الأنبياء والرسل وعلمهم لا يستغنى عنه أيّ إنسان لأنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بطبيعته وفطرته أمة واحدة، يرتبط بعضه ببعض و يحتاج بعضه إلى بعض في المعاش والأمور الدنيوية والأخروية ولا يستغنى بعضه عن بعض وكان لابدّ لهم من الاختلاف في أمورهم المعاشية والاجتماعية والسياسية والحكومية وعلى هذا الأساس بعث

[1] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 3836

[2] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 288

[3] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 2828

[4] السابق: ص 2708

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

الله تعالى من رحمته بهم الرسل والأنبياء والأولياء مبشرين و منذرين، يبشرونهم بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة إذا التزموا بما أمرهم وعلّمهم الأنبياء و الرسل.[1]

إنّ شخصيات الأنبياء عليهم السلام هي أكثر شخصيات التراث الديني شيوعاً في شعرنا المعاصر ولا غرو فقد أحسّ الشعراء من قديم بأنّ ثمة روابط وثيقة ترتبط بين تجربتهم وتجربة الأنبياء، فكل من النبيّ والشاعر الأصيل يحمل رسالة إلى أمته والفارق بينهما أنّ رسالة النبي رسالة سماوية وكل منهما يتحمّل العنت والعذاب في سبيل رسالته ويعيش غريباً في قومه محارباً منهم أو في أحسن الأحوال غير مفهوم منهم وأخيراً فإن كلاً من الرسول والشاعر يكون على صلة بقوى عليا غير منظورة، لذلك فقد طاب للشعراء أن يشبّهوا فترة المعاناة التي يعيشها الشاعر قبل ميلاد قصيدة من قصائده بفترة الغيبوبة التي كانت تنتاب الرسول أثناء الوحي، لذلك أيضاً دأب شعراؤنا المعاصرون على استعارة شخصيات الرسل ليعبروا من خلالها عن بعض أبعاد تجاربهم المعاصرة.[2]

من صفات أشعار زكريا البارزة أنّه لا يفرد غرضاً من أغراض شعره والتضامن القرآني بل لجأ في كثير من أشعاره بالاقتباس مع الآيات القرآنية كما شاهدنا في الأبيات التي قدم شرحها، من هذه الأغراض هي أشعاره القصصية التي استضاءت بالتناص مع القصص القرآنية أو قصص الأنبياء حيث يتّضح لنا في البيتين التاليين والأبيات التي نقوم بذكرها وشرحها في الآتي إن شاء الله:

وحمت فاس (فوليبولس) لما قالت (الأم) فيه آنست نارا

واقتدى الأطلس المقدّس بالط ور، فكان الكلام فيه جهارا[3]

1– فوليبوليس: اسم لقرية (قصر فرعون) بالرومانية، والأم هي والدة إدريس التي نزلت مع زوجها لتخطيط مدينة فاس وكانت حاملاً به فوضعت هناك.

هي قصيدة أنشدها الشاعر بين يدي الحسن الثاني في المهرجان الذي أُقيم له بضريح (مولاى إدريس) بفاس في زيارته الرسمية الأولى ليلة 25أفريل (نيسان) 1961.[4]

يذهب بنا بـ آنست ناراً إلى العبارة القرآنية «إذ رَأى ناراً فَقالَ لأ هلهِ امكثُوا إنّي آنَستُ ناراً لَعلّي آتيكم مّنهَا بَقَبَسٍ أَو أجدُ على النَّار هُدىً » (طه : 10) وهي قصة أُم إدريس عندما كانت في مدينة فاس وكانت حاملاً به فوضعت هناك، لمح إلى قصة موسى عليه السلام عندما ضلّ طريقه في الصحراء ومعه زوجته و قد يكون معهما خادم، ضلّ طريقه والليل مُظلم والمتاهة واسعة. نعرف هذا من قوله لأهله: «امْكثُوا انّي آنست ناراً لّعلّي آتيكم مِنها بِقَبَسٍ أو

[1] الميلاني، السيد مرتضى، حكم و مواعظ من حياة الأنبياء، ج2، قم: موسسة دار الكتاب الإسلامي،(لاتا) ص 3

[2] عشري زايد، علي، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة: دار الفكر العربي، 1997م، ص 77

[3] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 204

[4] السابق: ص 199

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

أجِدُ على النّار هُدًى» (طه: 10) فأهل البادية يوقدون النار عادةً على مرتفع من الأرض ليراها السّاري في الصحراء، فتكشف له عن الطريق أو يَجد عندها القرى والضيافة ومن يهديه إلى الطريق.[1]

في البيت الثاني وهو الخطاب التاريخي الذي ألقاه الحسن الثاني يوم 23 افريل (نيسان) أعالي جبال الأطلس بقرية (مرسوشه) معقل المقاومين الأولين وتقع على ارتفاع ألفي ميل تقريباً،[2] قد لمح به إلى بقية الوقع في جبل طور عندما رأى موسى النّار في الفلاة فاستبشر وذهب ليأتي منها بقبس يستدفئ به أهله، فالليلة باردة وليالى الصحراء بارده قارّة أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق أو يهتدي على ضوئها إلى الطريق[3] وأيضاً نلتقى مع الشاعر بقصيدة أخرى عنوانها حتى تستقل الجزائر بقصة من قصص القرآن الكريم وهي قصة سيدنا سليمان (عليه السلام)، عندما كان متّكئاً على عصاه حين وافاه أجله والجن تروح و تجئ مُسخّرة فيما كلّفها إياه من عملٍ شاقٍ شديد فلم تدرك أنّه مات حتى جائت دابةُ الأرض «قيل إنّها الأرضة» التي تتغذّى بالأخشاب وهى تلتهم أسقف المنازل وأبوابها بشراهة فظيعة[4] فطبَّقها وأشار إلى ديغول المتوكئ على عظمة زائفة، حيث يقول:

وما دلّنا عن موت من ظن أنّه سليمان . منساة . على وهمها خرّا[5]

فيتناص هذا البيت والآية الكريمة: «فَلَمّا قَضَينا عليهِ الموتَ مَا دلّهُم عَلَى مَوتِهِ إلّا دابةُ الأرض تأكلُ مِنسأتَهُ فلمّا خَرَّ تَبَيَّنتِ الجِنُّ أنَّ لَّو كانَوا يعلَمونَ الغَيب مَا لَبِثُوا في العَذابِ المهين».(سبأ : 14)

إنَّ أكثر القصص إشارةً في القرآن الكريم هي قصة سيّدنا موسى عليه السلام[6] والعجب العجاب إنّها أكثر إشارةً أيضاً في ديوان مفدى زكريا التي اقتسبها في كثير من أبياته، كما أشرنا سابقاً إلى بعض هذه الأبيات وقمنا بشرحها وبيانها، أيضاً في هذين البيتين التاليين يُشير إلى ما قد مرَّ على تلك الشخصية العظيمة إذ يقول:

ورثنا عصا موسى، فجدد صنعها حجانا، فراحت تلقف النار لا السحرا

وكلّم الله موسى في (الطور) خفية وفي (الأطلس الجبار) كلمنا جهرا[7]

يُشير بهذا إلى الملحمة والنار المشتعلة في يوم الجزائر ويقول أنَّ عصانا راحت تلقف النار بدلاً من السحر فومض بشكل التناص الإيحائي إلى عصا موسى وتقلُّبها إلى حية تسعى وأكلها سحر الذين كفروا وانتصار الحق على الباطل[8] يذكرنا بقوله تعالى: «قالَ ألقِها يا مُوسىَ. فألقَاهَا فإذا هى حيةٌ تَسعى» (طه: 19، 20) وفي البيت الثاني إلى النداء

[1] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 2706
[2] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 204
[3] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 2706
[4] السابق: ص 3377
[5] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 255
[6] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 2704
[7] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 256
[8] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 2709

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

الذي حدث في تلك الفلاة عندما رأى موسى النّار فاستبشر وذهب ليأتي منها بقبس يستدفئ به أهله «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يا مُوسى» (طه: 11) داعياً أنَّ الله تعالى كلَّمهم في الأطلس الجبار جهارا وقد أشرنا الى هذا البيت سابقاً، يجد المتأمّل في هذا البيت:

وكانت لإبراهيم بردا، جهنم فعلمنا . في الخطب . أنَّ نمضغ الجمرا[1]

أشار إلى قصة ابراهيم عليه السلام الذي أراد الملك نمرود إحراقه بنارٍ مشتعلة أوقدها لإيقاعه فيها وإهلاكه لكن الملك لم يبلغ مراده بعد أن أراد الله تعالى إنقاذ خليله إبراهيم عليه السلام من الموت فأمر النّار بأن تبرد كي لايصاب الخليل عليه السلام ولو بخدش بسيط إذ قال «قُلنا يا نار كوني بَرداً وسَلاماً عَلَى إبراهِيمَ» (الأنبياء: 69)

«يا نار كوني بردا و سلاما على إبراهيم» لتتكرّر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم؛ وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات،[2] طبعاً أنّها تكرّرت وأصبحت غدوةً أخذوها ودرسوها أبناءُ الجزائر وتعلّموا منها أن يمضغوا الجمر قوله: «فعلمنا . في الخطب . أن نمضغ الجمرا»

خاتمة

إنَّ القرآن الكريم مصدرٌ هامٌّ للأدباء والشعراء يغترفون منه ألفاظهم التي يستخدمونها ومن الملاحظ لِما تعرّضنا له في هذا البحث يكشف أنَّ القرآن هو المصدر الأساسي والمعين الوحيد الذي يغرف منه الشاعر مفدي زكريا ومن خلال هذا البحث نَجد أنَّه استولى على نفسه واستهوى قلبه فراح يتلهّف إليه وينهل من نبعه فإذا أراد أن يُعبِّر عن إيمان الرجال الذوي الشجاعة والبسالة يتداعى آيةً تثيرُ الشهامة وروح الكفاح في أذهان الشعب وفي وصف الثورة واستقلال الجزائر وموت أبناء أمّته يستدعي آيات تعكس لنا الحماسة وإرادة الشعب الراسخة والثابتة وهكذا الأمر في سائر أغراضه الشعرية برمّتها فهو بذلك يُزوّدُ النصّ بتأثير أكثر وأعمق في القارئ ويدنيه من الهدف المقصود والمطلوب.

ومما يلفت النظر هو أنّ التناص القرآني في شعر مفدي زكريا ينقسم إلى قسمين: أولاً: التناص مع الآيات الكريمة والتقاطع معها في البنية اللفظيّة والدلاليّة، ثانياً: استدعاء القصص القرآنية والشخصيات التي ذُكرت في القرآن الكريم، منها خليل الله ابراهيم والنبيّ موسى والنبيّ سليمان عليهم الصلاة والسلام.

ومن حيث التناص مع القرآن الكريم في شعره، تختلف الأبيات المتناصّة بعضها عن آخر، إذ نرى في موقف أنّ الشاعر قد استدعى آيةً أو ألمح إليها دون أن يُغيّر معناها، في موقف آخر يُحوّل معنى الآية إلى المعنى الذي يقتضيه الشعر وهو ما يُسمّى بـ"التناص التحويلي". أيضاً إستفاد الشاعر الجزائري من الصور التي وردت في سياق القصص القرآنية، فأشار

[1] زكريا، مفدي ، اللهب المقدس، ص 256

[2] سيد قطب، ابراهيم، في ظلال القرآن، ص 2774

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

إليها في شعره لتأدية المعاني التي كان يُريدها. هذا التنسيق بين النص الأدبي وبين دلالة الآيات . كما لاحظناه في شعر زكريا . يكشف عن قوّة الشاعر التعبيرية.

المصادر

. القرآن الكريم

المصادر الفارسية

. قادري، فاطمة (1388م) سيرى درتحول ادبيات معاصر الجزاير، يزد، دانشگاه يزد.

.قادري، فاطمة (1385) « صور من الأثر القرآني لدى مفدى زكريا شاعر الثورة الجزائرية » نشريه كاوش نامه، سال هفتم، ش13.

.قادري، فاطمة (1389) مفدي زكريا وشعر مقاومت الجزاير، نشريه‌ى ادبيات پايدارى، سال اول، ش2.

المصادر العربية

. ابن منظور (2004م) لسان العرب، بيروت: دار و مكتبة الهلال.

. البقاعي، محمد خير (1998م) دراسات في النص و التناصية، الطبعة الأولى، حلب: مركز الإنماء الحضاري.

. تفتازاني، سعدالدّين (لاتا) شرح المختصر، قم: انتشارات مصطفوي.

. جمعه، حسين (2003م) المسبار في النقد الأدبي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

. جهاد، كاظم (1993م) أدونيس منتحلاً: دراسة في الاستحواذ الأدبي و ارتجالية الترجمة يسبقها التناص، الطبعة الثانية، القاهرة: مكتبة مدبولي.

. الخضور، صادق عيسى (2007م) التواصل بالتراث في شعر عزالدين مناصرة، الطبعة الأولى، عمان–اردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

. الزاهري، محمدالهادي (1926م) شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الطبعة الأولى، تونس: المطبعة التونسية.

. الزعبي، احمد (1989م) التناص نظرياً و تطبيقياً، الطبعة الثانية، عمان: موسسة عمرية.

. زكريا، مفدي (2006م) اللهب المقدس، الجزائر، عاصمة الثقافة العربية: موفم للنشر.

. السعدني، مصطفى(1998م) في التناص الشعري، الإسكندرية: منشأة المعارف المصرية.

. سيد قطب، ابراهيم (1412ق) في ظلال القرآن، الطبعة السابعة عشر، بيروت: دار الشروق.

. الصمادي، امتنان عثمان (2001) شعر سعدي يوسف (دراسة تحليلية) الطبعة الأولى، عمان: مطبعة الجامعة الأردنية.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

.عشري زايد، علي (1997م) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة: دار الفكر العربي.
. عزام، محمد (2005م) شعرية الخطاب السردي، دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العرب.
. الغذامي، عبدالله (1998م) الخطئية و التفكير، من البنيوية الى التشريحية قراءة نقدية لنموذج معاصر، الطبعة الرابعة، القاهرة: الهئية المصرية العامة للكتاب.
. قبّش، احمد (1971م) تاريخ الشعر العربي الحديث، دمشق: موسسة النوري.
. القيرواني، ابوعلي الحسن ابن رشيق (1998م) العمدة في محاسن الشعر و آدابه، المجلد2، تحقيق: محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة.
. كريستيفا، جوليا (1991 م) علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، الطبعة الأولى، المغرب: دار البيضاء.
. مشيش، حسين (2008م) أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري، أطروحة دكتوراه، جامعة بانتة ، الجزائر.
. مفتاح، محمد (1985م) تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، الطبعة الثانية، بيروت: {دون نا}.
. الميلاني، السيد مرتضى(لاتا) حكم و مواعظ من حياة الأنبياء، ج2، قم: موسسة دار الكتاب الإسلامي.

الملاحق:

*ما جاء في كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" نقلاً عن الشاعر نفسه ما يلى: «ما تنفس صبح يوم12 جمادي الأولى سنة1326هـ إلّا وقد خطّ القضاء اسمى في سجل الأحياء، ترعرعت في واحة بنى ميزاب بقرية بنى يسجن» (الزاهري، 1926م، ص150) لقبه الأدبى "ابن تومرت" وهو واحد من المجاهدين المسلمين ومؤسس دولة الموحدين ولقبه الثورى "شاعر الثورة الجزائرية". (نقلاً عن قادري، صور من الأثر القرآني لدى مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، 1385،179).

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL
مجلة التواصلية
ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537